تاريخ الاستلام: 2019/09/30
تاريخ القبول: 2019/10/04

المشروع السيميائي و الدلاليات البنيوية انفتاح على مقاربة الأنساق الدالة

Semiotic project and structural semantics Openness to approach function formats

د.دايري مسكين*
chakernet2@gmail.com
جامعة سعيدة
(الجزائر)

ملخص:

اقبلت النظرية السيميائية الأوربية على فتح الممارسة العلمية المحايثة و اعلان الولاء للمنهج العلمي فجعلها هذا الاختيار أمام حتمية التعامل مع فضاءات العلوم المتعددة(اللسانيات الانتوبولوجية ، الظاهرتية...) ذلك لأن طبيعة موضوعها (الأنساق الدالة) أوسع من أن تتكفل به تصورات ضيقة و مفاهيم محدودة.

كلمات مفتاحية:

النظرية السيميائية ، المحاثية، المنهج العلمي ،الأنساق الدالة.

Abstract:

European semiotics theory accepted the open scientific practice of neutrality and the declaration of loyalty to the scientific method, making it the choice in front of the inevitability of dealing with multiple spaces of science (anthropological linguistics, phenomena ...) because the nature of its subject (function systems) is too broad to be ensured by narrow perceptions and concepts. Limited.

Keywords:

semiotics theory, inductance, scientific method, function formats.

المؤلف المرسل: د.دايري مسكين ، الإيميل: chakernet2@gmail.com

1- مقدمة:

إنّ الاهتمام بموضوع الدلالة ليس كفيلا بتمييز "السيميائيات الأوربية " عن باقي الاتجاهات الدلالية الأخرى. وحتى يتسّنى لنا فهم مرامي هذا الاتجاه، من اللازم الارتداد إلى العمل النظري القاعدي لـ: أ.ج. غريماس (A.J. Greimas) "الدلاليات البنوية"، الذي أحدث أثرا كبيرا أوساط اللسانيين، وكذا الفلاسفة، انطلاقا من تقديمه رؤية نظرية جديدة للدلالة تبنّتها مجموعة من الباحثين من مختلف أنحاء العالم. فاهتمام هذا الباحث السيميائي لم يكن منصبا على وصف جوهر المعنى وماهيته، وإنما كان يستهدف « توضيح شروط القبض عليه و إنتاجه» (Greimas, 1970, p.45).وفي هذا المقام يتجلّى تأثير ل.ي.يامسلف (L. Hjelmslev) الذي يرى أنه من غير الممكن « التعرف إلى المعنى إلا من خلال تشكّله، ولن يتحقق وجوده علميا إلا به»، (Hjelmslev , 1973, p.99)لكن هل يقتصر هذا التشكّل على النسق اللساني وحده؟ وهل تخص المقاربة السيميائية النص الأدبي بالدراسة دون سواه؟

إنّ "السيميائيات الأوربية " تستهدف كل أشكال صيرورات الدوال (Landowské،1987 p.16). ، سواء كانت من طبيعة لسانية أو غير لسانية انطلاقا من رغبة حثيثة في صياغة قوانين بنوية صلبة قابلة للتطبيق على كل المجموعات الدالة، لكن ألا يؤدي هذا الادعاء إلى بلوغ معرفة كلية للمجتمعات؟ يجيب ج.ك. كوكي (Coquet ،1982 p21) بأنّ هذه المهمة من الأحداث اللامعقول؛ بحيث من الاستحالة نظريا وتطبيقيا، أن نأخذ على عاتقنا وصف العالم الدلالي على كلّيته، لأن ذلك يعني الانخراط في وصف كل ثقافة كجماعة إيتنولسانية إنّ السيميائي ينطلق من فرضية أنّ « المواضيع التي يقوم بدراستها تدل على شيء ما، على الأقل داخل مجموعة سوسيو ثقافية معطاة». Coquet ،1982 , .(p43)بمعنى أن المقاربة السيميائية وهي تلج فضاء الأنساق الدالة بالتحليل والدراسة، لا تصبو إلى منح وصفة شاملة وعامة قابلة للتجريب على مختلف أشكال الدلالة وتجلياتها، وإنّما هي ممارسة علمية في طور البناء كما يصرّح لوندوفسكي ، بدأ صرحها مع غريماس ولا يزال يعلو بفضل إسهامات سيميائيي "مدرسة باريس". (Landowski,1987, p.16)

2- تطوّر الدرس السيميائي:

تسعى المقاربة السيميائية إلى توخي الدقة والصياغة المنطقية، ولعلّ هذا مردّه إلى المنطلق العلمي الذي عمل كل من "ش.س. بورس" و"دو سوسير" على التأسيس له، لكن ما يميّز السيميائيات المعاصرة أيضا انفتاحها على أكثر من فضاء، فهي تستهدف دراسة الدلالة في كلّ تشكّلاتها، وفي هذا المعنى يرى "كورتاس" (Courtés , 2005, p.5)أنّ الاتجاهات السيميائية اليوم أمست تدرج في خانة العلامات كلّ ما تجلت فيه سمة الثقافة، الخطابات الأدبية، والاجتماعية (القانونية والأسطورية والدينية...الخ)، ودراسة التمثلات المشاهدة (الكتابة، والصور الثابتة، أو المتحركة، والصور الفوتوغرافية...الخ)، والتنظيمات الفضائية (الهندسة المعمارية...الخ)؛ وآية القول، الأمر يتعلق بتحليل أي نسق دلالي داخل ثقافة معيّنة مهما كانت طبيعته.

والظاهر أن الارتداد إلى سيميائيات دو سوسير يجعلنا حيال عالم يروم إلى جرد العلامات وإنشاء نمطية لها ولعملها داخل محيط اجتماعي ثقافي معيّن، ومن وجهة النظر هذه، يزعم كورتاس، أنه من الممكن أن تكون مطابقة تقريبا للسيميائيات الأنجلوسكسونية؛ على الرغم من اختلاف منطلقاتها الفكرية، لكن سيميائيات اليوم في شكلها الناضج و محدد المعالم ، تسعى في البدء إلى استخراج العلاقات التي تقيمها العلامات فيما بينها، ثم بعد ذلك، البحث في علاقات العوامل المكوّنة للعلامات، وفي المعنى ذاته يرى إ. إيكو (U. Eco,1988 , p.13.)أن السيميائيات تحوّلت من التفكير في العلامة إلى الاهتمام بتدويل النصوص، وتأويلها، وانزياح التأويلات، وكذا الاهتمام بالطاقات الإنتاجية، وبالدلالات المفتوحة (Semiosis). وهذا ما يجعل صفة التحوّل من أهم نعوت السيميائيات، سواء

تعلّق الأمر بالموضوع السيميائي أو وسائله أو طرائق البحث فيه، فكم كان يبدو الخروج من العالم المغلق للغة، وصله بالذات المتكلّمة، والإحالة إلى السياق، من الموضوعات المقصاة لوقوفها حائلا أمام مبدأ الدراسة العلمية المحاثية، الذي أسست له "الدلالات البنوية"، لكن ما فتئ أن تحوّل هذا الإقصاء لمسائل التلفظ ودراسة حالات النفس، وما له علاقة بالتداولية مع الجيل السيميائي الثالث) (Landowski, 1989, p.13) إلى موضوعات بحث خصبة. تستقطب اليها الدراسات و المقاربات السيميائية ، لتنبث مقدرتها على مواجهة المشكلات التي امست مفروضة اليوم على البحث العلمي.

إنّ الرغبة في التعرّف على حقيقة الخطاب، وحالات تشكّل المعنى هي العامل الرئيس المحوّل للمشروع السيميائي الذي يرى تحقيق مقاصده في خاصيات الحوار والمقارنة والتقييم

(Greimas et Courtes, 1979, p.III)مع مختلف المباحث الدلالية الأخرى، ذلك لأنه ليس هناك ما يمنع من استعارة أفكار الآخرين، واستعمالها مرّة أخرى بوصفها معلومات استكشافية (1970، Greimas p.11،) ،تسهل علينا بلغ مقاصدنا الموضوعية فإذا ما تتبعنا الخطاب السيميائي وجدنا في مفرداته ومصطلحاته ما يحيلنا إلى اللسانيات، والرياضيات، والمنطق، والفيزياء، والتداولية و المعلوماتية ...الخ، ذلك لأن اللجوء إلى ألمع النتائج والطرائق العلمية و الاعتماد عليها هو من سبيل جلب شروط التكامل والشمولية لمشروع لم يزل يؤمن بوجوب التلاقح المعرفي، و يعتقد أشد الاعتقاد بأنّ لا وجود لعلم منتهٍ(Greimas et Courtes, 1979, p.V). و كامل صنعته حقائق ذات صحة مطلقة.

3-السيميائيات في الدراسات العربية:

كثيرا ما نصادف مقالات وأبحاث مترجمة، أو أجزاء كتب، وأحيانا محاضرات وتعاليق تصبو إلى التعريف بنظريات حديثة أو مشاريع علمية جديدة كالمشروع السيميائي، ولكن على الرغم من أهمية هذه الإسهامات وقيمتها التعليمية، إلا أنها تظل ناقصة ما دامت تقدم مفصولة عن أسسها الإبستمولجية، وعن السياق المعرفي الذي نشأت فيه، ونتيجة هذا كلّه، تحمل القارئ العربي إلى تحصيل قاصر، لا يمكّنه من وضع الفروق النظرية وتقاطعاتها واختلافاتها، وقد تنتهي بالكثير من الدارسين إلى إصدار أحكام نفي أو إقصاء في غياب الفهم الوافي للأصول العلمية والحجج المنطقية والمنطلقات الإبستيمولوجية.

ومن البداهة أن يكون الباحث في السيميائيات بوصفها مشروع علمي حديث مشبعا بمعرفة لسانية تؤهّله من مقاربة الخطابات في أشكالها المتعدّدة، فتحقيق قفزة عربية نوعية في المجالين: السيميائي أو اللساني لن يتمّ إلا باستيعاب العلوم اللسانية الغربية والتعرّف على المدارس السيميائية على اختلافها، وفهمها فهما وافيا، ثم لا بد من الارتداد إلى التراث العربي اللغوي والفقهي والبلاغي... والتعمّق فيه، حتى يتأتى لنا إنشاء صيغة واضحة لمنهج عربي لساني سيميائي قادر على الإسهام في هذا المشروع السيميائي الحديث الذي تبدو نهاياته أوسع من أن ترتسم الآن. وفي هذا الإطار يمكن أن نحتجّ برأي أبي حامد الغزالي في مواجهة الأحكام غير المؤسسة على العلم الوافي والدقيق إذ يقول: « علمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع علم من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يتساوى أعلمهم في أصل ذلك، ثم يزيد عليه ويتجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فساد حقا » (ابوحامد الغزالي،1982،ص94) وعساه أن يطلع على نفع ذلك العلم وسمو قيمته وإذ ذاك يكون ما يدّعيه من الفساد والضلال مانعا لأسباب التقدم وموئدا لحدث جديد ينقلنا من الجمود والسكونية إلى أفق معرفيّ مفتوح.

ونعتقد أن مشروعا نظريا لا بد من أن يكون محاطا بأكبر قدر من صفاء الفكر حتى لا تغدو أحكامه مشدودة إلى أوهام وتصوّرات مضلّلة. ولذلك نرى بأن بناء تصوّر واضح وعميق لنظرية سيميائية عربية يضحى أمرا ممكنا إذا نحن شرعنا في قراءة المنتوج الغربي اللساني والسيميائي قراءة معمقة وبلغته الأصلية، فلا أحد يشك في نسبة هذين العلمين إلى الثقافة الغربية، وهذا ما يدفع بنا إلى فتح مجال الترجمة وتعلّل اللغات حتى يتمّ لنا التعرّف على هذه العلوم في لغاتها الأصلية، ومن جهة أخرى يجب الارتداد إلى التراث العربي اللّغوي والدلالي والفقهي...الخ، وقراءته قراءة حديثة مؤسسة على تصوّر علمي يلغي أيّ تشدّد ودغمائية، ذلك لأن الالتزام بتصوّر شديد الوفاء للتراث إلى حدّ التزمّت والانعزالية، لن يسمح باكتشاف القيمة الحقيقية للمنتوج التراثي. ولذا لا بدّ من استبدال معتقد: "إن الأوائل قد أتوا بما لا يمكن أن يزيد عليه الأواخر" بمعتقد يتقفى الحقيقة والمعرفة آخذاً بما توسلت به علوم الآخر من أدوات معلومة، وبما توصلت إليه من نتائج أكثر علمية ويقينية.

إنّ السيميائية العربية بوسعها أن تقدم الكثير إن هي تمكّنت من الفهم الوافي للمناهج والطرائق الحديثة لسانية وسيميائية، والارتداد بها إلى المنتوج التراثي حتى يتسنى لها بناء نظرية سيميائية عربية. فلا يجب الاكتفاء بنقل المفاهيم والمصطلحات في محاولة حلّ قضايانا ومقاربة خطاباتنا، وإنّما نحن مدعوّون إلى وجوب التفاعل مع هذه النظريات من خلال استيعاب أسسها الفلسفية ومرتكزاتها المعرفية، ثم البحث عما يمكن أن يكون السند العلمي الأنفع لنظرية سيميائية مميّزة، عوض الانغلاق ضمن تصوّر يمنع أيّ جدّة أو تحوّل في المعرفة أو الموضوع أو المنهج أو المفاهيم.

4-كورتاس في البحث السيميائي العربي:

قطعت السيميائيات شوطاً عظيماً في تجديد مناهج دراسة الخطابات، وإعادة النظر في مقاربة قضايا الدلالة، من خلال تغيير الوعي النقدي، والثورة على القراءات الانطباعية الكلاسيكية التي تستند إلى الوصف المباشر للوقائع النصيّة، أو التحليل المؤسس على الانفعال العرضي، وحتى يتسنى لنا بلوغ استيعاب متصورات النظرية السيميائية، أمسى من المفروض الإحاطة بالأصول النظرية للسيميائيات، ودراسة الأعمال التي شيّدتها، وشكّلت مرتكزاتها.

وإذا كانت بدايات التأسيس مع غريماس تفرض سيميائيات صلبة dure و صارمة . (Courtés , 1995, p.11).

وتُبدي احتراسا كبيرا من التعامل مع التأويلات الدلالية الأخرى، فإننا نلفي عند جوزيف كورتاس سيميائيات أكثر نعومة douce، وأكثر انفتاحا على مختلف البحوث الدلالية بحيث يعتمد في منهجيته السيميائية على المقاربة الوصفية العلمية التي تتكئ على الاستقراء والاستنباط منتهجا طريقة تعليمية مبسّطة تستهدف بالأساس عرض المفاهيم السيميائية وشرحها، والاعتماد على التطبيقات المختلفة على خطابات متنوعة.و فاتحا بدلك المعرفة السيميائية على فضاءات التلقي الواسعة لتكون في شكل علم مشاع بين العامة و الخاص .

إنّ ترجمة مؤلفات هذا السيميائي وتخصيص أعماله بالدراسة، وتتبع تطبيقاته المتخلفة كان له أثر كبير ومزيّة عظيمة في بسط المعرفة السيميائية في فضاء الدراسات العربية، بحيث شرع بعض الدارسين السيميائيين في الآونة الأخيرة في ترجمة بعض مؤلفات هذا السيميائي(كجمال حضري مثلا) ونهج بعضهم (كعبد المجيد نوسي في كتابه التحليل السيميائي للخطاب الروائي) نهجه في مقاربة خطابات مختلفة، ولا نجد تبريرا لهذا النزوع إلى أعمال هذا السيميائي ومؤلفاته إلا في صفة الوضوح والبساطة والسهولة التي تُنعت بها أغلب دراساته؛ ذلك لأن المهام الأساسية للعلم كما يزعم يامسليف (Hjelmslev , 1973, p.180. هي إيجاد وجهة نظر تجعل الأشياء أقلّ تعقيدا، وأكثر جنوحا إلى البساطة.

إن انتشار السيميائيات بين أوساط الدارسين والقرّاء، واعتراف وزارة التعليم الفرنسية بها، والشروع في تكوين المدرسين في أطوار التعليم المختلفة بفرنسا على فهم منطلقاتها و فقه أبعادها الطموحة ، لدليل على القيمة العلمية التي تميّزها عن باقي النظريات الأخرى، وإنّ حاجتنا إلى هذه المناهج العلمية اليوم تلزمنا التنقيب عن كلّ ما جدّ وظهر نفعه عند الآخر.

5- السيميائيات و الأنساق الدلالية

أن السميائيات الأوربية تميّزت بالتطبيقات النوعية على مختلف النصوص والخطابات، ولم تنحصر على النص اللساني (اللفظي) فقط، فإذا ثبت أن الوصول إلى المضمون لن يتأتى إلا من خلال العبارة، بات من الضروري التنبيه على أن مستوى الدال ليس رهين المواد اللغوية اللسانية، وإنما قد يتمظهر في أشكال مختلفة، عبر الصوت، والصورة، وكل ما تتلفظه الحواس، بحيث يقول غريماس (إنّ الدلالة بإمكانها أن تختفي تحت كل التمظهرات المحسوسة، إنها وراء الأصوات، وكذلك الصور، والروائح، والأذواق...(Greimas, 1970,p45)) وهذا يعني:

أ- إنّ طبيعة الدلالة موصولة بكيفية إنتاجها، وشروط إنتاجها ، ويكون المسعى السميائي بذلك يستهدف توسيع حقل عمله من خلال اكتشاف فرضيات استراتيجية لفهم الدلالة من دون الشروع في البحث في ماهيتها وطبيعتها.

ب- إنّ العالم المحسوس من حولنا يضحى في كليّته موضوعا لاكتشاف الدلالة والمعنى، مما أدى بالممارسة السميائية إلى اجتياح مختلف النصوص، سواء الفنية المشاهدة عند "فلوش" (J.M.Floch) ، أو الإشهارية عند "بارتين" (E.Bartin) ، أو الانجيلية عند جماعة انتوفرن.

وأما إذا تساءلنا عن الخطاب الأدبي ومقامه ضمن هذا التعدد، فينبغي التأكيد أنّ التمظهر المشاهد visible كما يرى غريماس هو الأكثر أهمية (في المنظور السميائي) ،كما ونوعا ، ثم إنّه ينفرد عن باقي الخطابات بخاصتين:

-كان له الموقع الرائد مع بداية التطبيقات السميائية خصوصا مع غريماس و كوكي .

-إنّ السميائيات الأدبية، كما تقول "إينو"لم تزل تمثّل المخبر التجريبي للمصطلحات السميائية

والظاهر المعلوم أن المشروع السميائي الأوربي هو مشروع جماعي، مؤسس على جهود عدّة باحثين في مختلف الميادين والمجالات، ولا يمثل "أ.ج.غريماس و ج. كورتاس و أ.إنو ..." وإسهاماتهم السميائية إلا لبنة بسيطة ضمن هذا البناء الطموح.

6- خاتمة

وحاصل القول، إنه من الصعب إحصاء الجهود العظيمة التي انشغلت بمسائل الدلالة والمعنى والعلامة تنظيرا وتطبيقا؛ بحيث لا يمكننا تجاهل فضل مدرسة كوبنهاغن، وحلقة براغ، أو أعمال مدرسة باريس ، ومجموعات زوريخ Zurich ، وبولون Bologne ، وليون Lyon ، ومور يال Montreal ، وبروكسيل Bruxelles ، وساو باولو Sao Paolo إلخ ، أو الاتجاهات اللغوية العديدة كالدلاليات التوليدية، والبراغماتية، وهذا يعني أنه من المجحف حصر البرنامج السميائي في أعمال كريماس أو بشكل أوسع، في مدرسة باريس، والاعتقاد على أن هذه الأخيرة هي الوريث الوحيد، والوكيل الرئيس لمشروع سوسير السيميولوجي.

كما يبدو من غير الحكمة تقديم الولاء التام لمنهج معين ، أو مدرسة بعينها ، ذلك لأن المعارف و العلوم الانسانية هي دوما في تجدد و تحول على الدوام و إهتمامنا بالنظرية السيميائية نسعى من خلاله الى تمديد فضاء معارفنا لتساير حركية الانتاج المعرفي المتسارع .

7. المراجـع

1. - الغزالي ابو حامد ، 1982، المنقض من الضلال ، دار الأندلس ، السعودية
2. Greimas .A.J., Du sens, éd. Seuil, 1970.
3. Hjelmslev. L., Prolégomènes, à une théorie du langage, paris, éd. Minuit, 1973.
4. Landowské.E, Préface, in Sémiotique en jeu, à partir et autour de l'œuvre d'A.J. Greimas, sous le dir. de M. Arrivé et J.C. Coquet, paris, éd. Hadés, 1987.
5. Coquet. J.C, Sémiotique, Ecole de paris, paris, éd. Hachette, 1982. ،
6. Courtés .J., Sémiotique de langage, France, éd. Armand Colin, 2005.
7. Landowski. E., La société réfléchie, in Actes sémiotique-documents, VIII, paris, éd. Seuil, 1989.
8. Eco. U., Sémiotique et philosophie du langage, Trad. Myriem Bougaher, paris, éd. PUF.
9. Greimas A.J et Courtes. J , Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, paris, éd. Hachette, 1979.
10. Courtés .J, Du lisible au visible, Initiation à la sémiotique du texte et la langue, Bruxelles, éd. De Boeck, 1995 .
11. Hjelmslev.L, Prolégomènes, à une histoire du langage, trad. Una Conger, paris, éd. Minuit, 1973 .